

## الأدب والأخلاق (\*)

للأستاذ عمر الدسوقي

تقديم:

ربّ! إلى أين نحن سائرون؟ وما هذه العواصف التي نعصف بنا من كل صوب؟ وما هذا الفيض المتهمر الذي ترمينا به المطابع في هذه الأيام؟ أبلغنا حدّ الترف العقلي والعمرائي، وأخذنا نصيبنا كاملاً من ضروريات الحياة، والغذاء الصحيح للمقول، ومقومات الأخلاق والشخصية، ولم يبق أماننا إلا أن نمكف على مخلفات الحضارة الأوربية نلتقط منها الفث والسمين، والنافع والضار، والجليل والدميم، وما يلائمنا وما لا نستسيغه، وما لا يوافق طباعتنا وعاداتنا وجوهر شخصيتنا؟

أهو أبحار عقلية الجاهير، واستغلال لرغبتها اللذعة في القراءة، وطمع من حيات كسب المال التي ملكت على بعض الناس عقولهم وألبابهم في هذه الأيام العصبية؟ أم هو انتتان بما أوقع أوربا في التهلكة، وفكك فيها الأسرة والشعب، وطوح بالأخلاق والفضيلة والإيمان، وجعلها تبتذ

(\*) هنا المقال رد على من علقوا على مقال « المرأة » المنشور بالرسالة في العدد ٥٥٥

وثمة يطفر به خياله الوهاب، فيتمثل في عالم الاماني والأحلام ما بلغه العلم بعد عصره بألف عام، فيتخيل الإذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة بعد أن كانت وهماً من الأوهام فيقول: « ويسلم بركة، فيسمه أخوه بالشام »

ثم يتبادى في خياله فيتمثل الإنسان وقد استطاع أن ينقل النار في لحظات من مكان قصي إلى آخر، أو يتخيله ينصق باللقمة وهو في « خراسان » فيسرع إلى ماء « زمزم » ليستقي منه ويزيل غصته به. أو يتغيره من المياه البعيدة النائية، فيقول: « ويأخذ النار من نهامة، فيوقد بها النار في بيرين وقاصية الرمال. ويجاز بأكيلته (بعض بلغمته) في قصور فرغان (في خراسان) فيمتصر بماء الضنونة (زمزم) أو جراب (موضع بعيد، فيه ماء) »

فإن كبعوثي

المثل العليا، ولا ترى إلا المادة الزرية هدفًا يذآف إليه ويتناحر الناس في سبيل الوصول إليه حتى أرداهم حرصهم عليه في ذلك الأتون المستمر الذي كاد يودي بالطارف والتأييد؟

وإلا فما هذا القمص الخليع الذي يثير الشهوة ويقتل الحياء، ويلطم وجه الفضيلة والشرف، ويوحى بالإجرام والفسق؟ وما هذا الأدب الموبوء الذي يزول العقيدة ويخدش العفاف؟ إنه ورد آسِنٌ وغذاء عفنٌ وإيم الحق، وأحرى به أن يصادر، ويؤخذ التجرون به أخذاً عنيفاً على ما أجمروا في سبيل أمتهم الشادية في العلم والحضارة! إنهم يريدون مسخها وتشويهها حتى تنفاسي ماضها، وتفقد ما كسَنَ فيها من عزّة وأنفة، وتنسى أن لها ديناً يمصمها من الزلل والعتار، وتاريخاً يزخر بالبطولة والمثل العليا، وأدباً هو وحى الفطر السليمة ولقد أعدت الحمي كثيرين فأخذوا يقلدون هذه السلع الدخيلة من غير وعي، ويصورون أسوأ ما في مجتمعاتنا مرّة باسم « الأدب الواقعي » وتارة باسم « الأدب الحر »، وأخرى باسم « الفن للفن »... إلى غير ذلك من هذه العلامات التي رأوها ملصقة على الآداب الواردة من الخارج، دون أن يدركوا ما في انتحالهم هذا من عبث وهذر وتزييف وتقليد غث

إن تعلق النزعات الوضيعة عند الجمهور، وبمث الفرائس الدنيا لدى الإنسان من مقلها - وقد حاولت الأديان والأخلاق والعلم الصحيح كبتها وتهذيبها - تحت هذه الأسماء المزيفة التي جنت على الغرب من غير أن تتمظ بمأساته جُرم لا يتغير

ليس للأدب الواقعي قيمة لا من جهة الفن ولا من جهة المنزى؛ لأنه محاكاة لما في الطبيعة أو لما في البيئة الإنسانية محاكاة لا تصرف فيها، فلا تظهر شخصية المؤلف أو إحساسه الخاص، أو ما يضافه خياله على الصورة المنقولة، وكل ما له من جهد أنه جرد الصورة مما يحيط بها وحاول إبرازها بأداة تعبيره، على قدر استطاعته، طبق ما في الخارج

ففن المؤلف هنا سلبي محض، وأما المنزى، فالأصل دائماً أروع وأبلغ وأكبر أترأ في النفس من التقليد. ولم أجد رداً على هذا المذهب أشنى من رد أرسطو حين يعرف الأدب في كتابه الشعر « بأنه تقليد الناس بصورة خير مما في الحياة أو شر مما في الحياة » مهملاً مطابقتة لما في الحياة: « لأن الأصل أماننا أبدأ وهو أبلغ وأقوى » وبدهي أن أرسطو قصر الأدب

## مسألة الأدب

الأدب صورة لما يتجاوب في النفس الإنسانية الملهمة الفنانة من فكر وإحساس ورغبة ، فنفس الأديب تتأثر تارة بما في الحياة من تجارب ومناظر وحقائق وإحساسات فتتضمن لتلك المؤثرات وتتحد معها وتضفي عليها من إلهامها وخيالها ومشاعرها ثم يبرزها بعد ذلك الانصهار ليتأثر بها غيرها ، وتارة تتبع تلك الصورة من النفس ذاتها وما اخترنته من تجارب وما أدته من علم وخيال . وفي كلتا الحالتين هناك صورة تختصر في نفس الأديب تظهر في عبارة لتنتقل إلى القارئ ، وكلما كان تأثر الأديب بالصورة عظيماً ، وتعبيره عنها قوياً ، كان تأثيرها في القارئ لا يقل عن أثرها في نفس مبدعها .

وما دام الأدب لا بد أن يمر على النفس الإنسانية ويصدر عنها ، فظاهر هذه النفس تحدد لنا الغاية من الأدب والمهمة التي يضطلع بها في الحياة .

نعلم أن للنفس الإنسانية ثلاثة مظاهر : تفكير ووجدان وإرادة . فالتفكير يبحث عما في الحياة والكون من حقائق ، ويتفهم ما في هذا العالم تفهماً صحيحاً عارياً عن اللبس والنموض ، فغاية هذا المظهر الحق

والوجدان يتأثر بالجمال والجلال والقوة ، والألم والأمل ، وينفعل بكل ما يثير العاطفة ويندبها ويرفعها ، فغايته الاهتمام لمواطن الروعة والجمال ، سياتي في ذلك ما يوجد في الكون والطبيعة ، وما يرى في الحياة الإنسانية من تصرفات ومآسٍ وخلق ، فما كان منه منسجماً رانماً شع في نفس الأديب الإعجاب والارتياح ، وما كان منه متناقراً رديئاً أثار في نفسه الألم والاشمئزاز

والإرادة تصبو إلى تنفيذ ما يريه الإنسان وما يرغب فيه ، وما يراه أنه خير له ، وأن في تحقيقه سعادته ، والإنسان دوماً حريص على أن يحقق عظام الأمور ، ويتوق إلى الكمال ؛ ولهذا كان مظهر الإرادة في نفس الإنسان السليم هو الخير

فالنفس الإنسانية بمظاهرها الثلاثة تجري وراء الحق والجمال والخير ، وما دام الأدب صورة لنفس إنسانية ممتازة بالإلهام والقدرة على التعبير فلا بد أن يحقق واحداً من هذه الثلاثة

بتمريقه هذا على المساءة والمهزلة ولا يمتينا تبليان رأيه هذا إلا بالتقدير الذي سقناه إليه ؛ إذ يد إهارة العواطف والمشاعر في الناس ، ولذا فهو يبالغ في احتذائها ، ويبالغ في تصوير مثل ثم لماذا لا يقلد هؤلاء باسم الأدب الواقعي « إلا الصور الدميعة التي تدفع إلى الرذائل في القلوب الخارية والأخلاق الرقيقة ، ومن ليس عندهم مبادئ تصممهم أو إيمان يردعهم ، ومن تسهل غوايتهم وإضلالهم

أما « الفن للفن » أو للفن أن ليس للفن وظيفة يؤديها في خارجة عنه فلا يقال : إنه صا أو ضار أو كذب ، وإنما هو الذي يبرمج التعبير دون أن نتوقع منه أن يخبرنا بشيء أو يقنعنا بـ

إما أن يكون للكلام معنى أو خالياً من المعاني ، فإن كان له معنى ، فإما أن يكون مؤلف قد عناه وحاول التعبير عنه أو يكون قد جاء عفواً دون أن يدري به أو يقصده ، فإن كان قد عناه ورمى إليه بعبارة ليس أدبه من الفن للفن ؛ وإن كان رمية من غير رام وشيئاً صدر عنه من غير أن يشعر به أو يعمل فيه فكره - فلو سلمنا بهذا - لم يؤاخذ عليه صاحبه لأنه أشبه بهذين المحموم وعبارة المتوه لا يعنيتها ولا يريدتها ولا يسأل عنها أو يحاسب عليها . ومثل هذا جرى بنا ألا نشغل به عقولنا أو نسميه أدباً . وأما إن كان الكلام خلواً من المعاني فحسبنا أنه كذلك ، فهو لثوب وهراب فهل هذا هو « الفن للفن » ؟

إني أفهم « العبارة » على أنها وسيلة لنقل معنى في نفس المؤلف يريد أن يقضى به للقارئ ، لا غاية في ذاتها ؛ وهذا المعنى سيؤدى وظيفته من تأثير في نفس القارئ بالخير أو الشر ، وسيصدر عليه القارئ حكمه حتماً حسب استمداده وحسب قوة وصوله إليه أو ضعفها - تبعاً لمهارة المؤلف الفنية - سواء أراد المؤلف ذلك أم لم يردده . أما ألا توجه للفن حكماً خارجاً عن طبيعته ، فأغلب الظن أن هذه نظرية أرادوا بها التخلص من التيمات والتهرب من النقد ، والتستر وراء الفن حتى لا يهاجوا أو يحاكروا إن ندد فكرهم أو شردهم أغراضهم عن المؤلف ، أو طعنوا الفضائل واستخفوا بالأخلاق

طريق السعادة والخير . إن بيتاً من الشعر قد يصلح نفساً خالته  
أو يرد التمسك الجبان إلى الثبات والشجاعة . ولقد قتل بيت  
من الشعر أبا الطيب المتنبي حين هاجه أعداؤه وهو عائد من  
لندن عضد الدولة ، فلما رآهم كثيراً وأنه ليس لهم نداء ، هم بانترار  
فنادوه : ألسنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فتبث في مكانه وقائلهم بصبر وشجاعة حتى قتل

ورحم الله معاوية حين قال : « اجملوا الشعر أكبر همكم ،  
وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهدير بصفين ، وقد أتيت  
بفرس أفر محجل بميد البطن من الأرض ، وأنا أريد الحرب  
لشدة البلوى فما حملتني على الإقامة إلا آيات عمرو بن الإطناية :  
أبت لي همتي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالتمن الربيح  
وإحاي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح  
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي  
لأدفع عن مآثر صالحات وأحبي ، بعد ، عن عرض صحيح  
عمر الصرقي

وإذا كان هناك أدب لا سلى هذه الأمور أو يفصح عنها  
فهو أدب نفس مرهضة شاذة بهم بالضلال والدمامة والشر ،  
وهو أدب يترضى النزعة الخفية في الإنسان ، وينادي الأجزاء  
الدنيا من النفس الإنسانية لتستجيب له ، ويعمل على شل سيطرة  
المقل أو إضعاف سلطانه على بقية أجزاء النفس من قوى شهوانية  
وغضبية ، وفي هذا ما فيه من شرمين على نفس الفرد وانسجام  
المجتمع .

ثم إن نفس القارئ تهتز وتطرب وتأذن يسر وسهولة لمن  
يحدثها عن الحق والجمال والخير إلا النفوس الوضيعة اللثائمة .  
ولا ريب أن الموضوعات النفسية تختلف أنواعها في نظر الإنسان  
بين الجليل والتبسيح والجليل والحقير والشريف والوضيع ، وهي  
تهتز وتمجج بمن يصورها الجمال والمجد والشرف ، وتصفي  
لهذه الخقائق في نهم وشوق لأنه يسمو بها ويحلق في أجواء  
المثل العليا التي تطمح في الوصول إليها ، وبنية فيها مشاعر الجمال  
والجلال . قد يجيد بعض من يتحدثون عن الأشياء التافهة  
الحقيرة ؛ بيد أن جودة فهم قد تنبئ في تافهة الموضوع . والأدب  
لا ينظر فيه إلى الإجابة فحسب ، ولكن يراد مع هذا الموضوع  
الذي يفت في النفس الإنسانية من قوته وسحره وروعته . فيشد  
من عزيمتها وينمي مشاعر الخير والجمال منها ، وبهذا يؤدي  
الأدب رسالته السامية ، وفي هذا يتفاوت الأدباء في ميدان  
الخلود والشهرة ، وكلما حققوا في كتبهم وجللوا غايتهم تلك  
المثل الرقيقة ، كان حظهم من المجد والمبكرة أوفى

أما هؤلاء الذين يتشدقون بأنه ليس من شأن الأديب أن  
يكون واعظاً أو مرشداً وإلا ثقل على النفس وسجج فأقول :  
إن هناك ظرفاً شتى للتأثير في نفس القارئ وتحقيق الغاية من  
الأدب ، فالإيجاء والتعريض ، والصورة والرمز وضرب المثل ،  
وإبراز المآسي ، والتهكم والتندر بالأسلوب الطريف السائق ؛  
كل هذه وسائل تعبد أمام الأديب سبيله . أما أن يكون أديبه  
بمجرد عبارة تقال لا غاية لها ولا معنى تفصح عنه ، فهو هراء تبا  
بأنفسنا وبكم أن نشغل به

وبسد فنحن أمة لا يزال نصيبها من الرق ضئيلاً ، وفيها  
عيوب خلقية واجتماعية كثيرة ، ونحن أحوج إلى من يرينا  
الحق ويهذب نفوسنا ، ويكبيح جراح شهواتنا ، ويرشدنا إلى

### مجلس مديرية - الغربية

الادارة الهندسية القروية

يقبل المعطيات لنهاية ظهر يوم  
الثلاثاء ٤ أبريل سنة ١٩٤٤ عن توريد  
ثلاث طلبات ماحثة كاسبة ومواسير  
جلقائيزية وملحقاتها - وتطلب الشروط  
والمواصفات على ورقة نمرة ثثة ثلاثين مليا  
للسنحة . ١٩٩٠